الملف الكبير

متولى

بقلم : راشد رستم

أراد (رافيك) ان يقضى عطلته فى أحد المشاتى الجبلية الهادئة استمتاعا بالهواء الجاف النقى ، وطلبا لنشاط المرتفعات ، وهربا من خمول المنخفضات وبعدا عن ضوضاء المشاتى الصاخبة وما فيها من متاعب الملاهى وتصنعات المجتمعات ·

اختار بلدة صغيرة فى جبال سويسرا، لايرتادها الا القليل ولا يقصدها الا من ينشد الراحة والهدوء والاستجمام ، وقد ارشدته اليها آنسة سويسرية تعمل فى احدى المكتبات الكبيرة الشهيرة فى باريس حيث يقيم رافيك دارسا متفقها متثقفا ·

وهذه المكتبة تقع فى أول شارع البواكى الشهير ـ ريفولى ـ من ناحية ميدان (الكونكورد) أوسع ميادين العالم حيث تقوم فى وسطه مسلة فرعون المصرية بقامتها المديدة عدة الآلاف من السنين ، وهى تقف تجاه قوس النصر النابليونى بميدان الاتوال (النجمة) عند الطرف الآخرى طريق (الشانزلزيه) أجمل وأطول شوارع المدن فى العالم ، والفرق بينهما فى المسافة بضعة أميال ·· واما الفرق فى الزمن فعدة الآلاف من الاجيال ·

وشارع البواكى هذا (ريفولى) من اشهر شوارع العالم ، واما تلك البواكى فهى التى تحنو على افخم وأغلى الحوانيت ذات الوجهات المملوءة بأنفس الحاجيات ، يتمتع بما هدتها من لا يستطيع شراءها! وهذه البواكى من جهة واحدة · أما الجهة الاخرى من الشارع الشديد الزحام فتوجد على امتداده الطويل حدائق (التويلرى) الجميلة ثم متحف (اللوفر) العظيم حتى تصل الى ميدان البلدية الواسع الفسيح · وهناك ترى عدة تماثيل لبعض الاسود من السباع فى وضع جميل ووقفة ذات هيبة وجلال · وهى بالحجم الطبيعى مما يزيدها حسنا وجمالا ·

عرف رافيك الآنسة سوزان من كثرة تردده على هذه المكتبة الامريكية الكبيرة، طلبا للكتب ولان بها صالونا ملحقا بها تابعا لها · صغيرا ولكنه هادىء جميل التنسيق ، يتناول فيه الشاى من يريد من المترددين على المكتبة وممن هم على شاكلتهم ممن يريدون تصفح الكتب قبل شرائها · وهى فكرة تثقيفية طريفة كما انها تتيح التعارف بين الادباء والمثقفين من مختلف الشعوب اذ ان هذه المكتبة تبيع الكتب بجميع اللغات ·

والآنسة سوزان شابة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، داكنة الشعر ، بيضاء البشرة ناعمتها ، وهى بالرغم من انها سويسرية المانية فهى نحيفة ، ممشوقة القوام ، رشيقة الهندام ، حلوة القسمات ، عاطفية الشفتين ، هادئة العينين ، لطيفة أنيقة ، قليلة الكلام (مع انها تتكلم خمس لغات ! ..) بادية التفكير ، صحيحة التعبير ، فى نبرات صوتها الواضح وفى ملامح وجهها الصبوح دلالات حزن كمين ، وكآبة مستورة ، رغم اشراقاتها ودعاباتها وابتساماتها ، يزين هذا كله ما فى طبيعتها من دعة ورقة واحتشام .

هى كثيرة القراءة ، واسعة الاطلاع رغم ضياع اكثر وقتها فى المكتبة .

ـ وكيف ومتى اذن تقرئين ؟

ـ ان القراءة تريحنى وترضينى .

ـ ولكن من اين لك الوقت الذى يكفى للقراءة .. وللتسلية ؟

ـ ان القراءة هى تسليتى .

ـ القراءة تسليتك ؟!

ـ نعم انها تسليتى .

ـ وما هو اذن الذى ليس تسليتك ؟ !

ـ هو عملى .

ـ غريبة ! .

ـ لا غريبة ولا غرابة . الامر بسيط ان عملى فى المكتبة هو مورد رزقى ، واما القراءة والاطلاع فهى حياتى وراحتى ومتعتى .

ـ (متأثرا فى دهشة ..) والرياضة والاسترواح والفسح و .. و .. والشباب ؟!

ـ المسألة مسألة مزاج . على انى لا أحرم نفسى من ذلك . وهنا فى فرنسا أماكن وبقاع ومناطق كثيرة جديرة بالزيارة وتمضية أوقات لطيفة .

ـ أين وكيف ؟

ـ يلوح لى انك حديث عهد بهذه البلاد .

ـ نعم . انها بضعة شهور وبودى ان اعرف كل شىء عن باريس وعن معالم فرنسا ومشاتيها ومصايفها . وقد سمعت عنها الكثير كما انى أحب الرحلات والاسفار والتنقلات ، ولكنى لا أجد الرفيق .. وهو أهم من الطريق .

ـ هذا حق . ومع ذلك فقد تستطيع زيارة هذه المعالم والأماكن فى أوقاتها وستجد جماعات وجماعات من الزائرين والزائرات من جميع الجهات .. ان معالم فرنسا عظيمة وذات أهمية كبيرة . وقد احتفظت الامة الفرنسية رغم ثورتها العصماء الهوجاء بهذه المعالم الثمينة كما عنيت الحكومات والبلديات على اختلاف نزعاتها عناية فائقة واعتبرتها من تراث الامة العريقة ذات التاريخ القديم . كما ان لهم فيها مغانم كثيرة .. وهذا عين الصواب .

ـ عندنا بالكلية كثيرا ما أرى اعلانات من جماعة من الطلاب عن رحلات وزيارات يرأسها أستاذ أو شخص متخصص . ولكنى لم أجرأ على الانضمام وان كنت أرغب فيه . وذلك لانى أشعر ، مخطئا أو مصيبا . بأن الفرنسيين عامة يفضلون أنفسهم ولا يرحبون بالغريب بينهم .. غير انى رأيت أن بعضا ممن هم مثلى من الاغراب أجرأ منى يشجعوننى على الانضمام الى رحلات وزيارات تلك الجماعات .. فما رأيك ؟

ـ رأيى ان تنضم وان تذهب معهم حيث يذهبون . وان شئت ألا تفعل مثل ما يفعلون . فلا تفعل واحتفظ بشخصيتك .. وانما كن معهم .

ـ وهل قمت بهذه الزيارات والرحلات ؟

ـ نعم ـ عن طريق شركات السياحة. وهى تتكون عادة من جماعات من السائحين والسائحات من مختلف الجنسيات ، يقوم عليهم دليل متمرن متعلم مهذب يتكلم عدة لغات .

ـ سأفعل مثل ماتفعلين .. بل خذينى رفيقا لك عندما تذهبين .

ـ لا . الافضل لك ذهابك مع زملائك طالما كان ذلك باشراف الكلية .. ان المخالطة ضرورية للاغراب . ولكن لابد فيها من التحفظ ، (اجتمع بغيرك واحتفظ بنفسك) انها القاعدة الذهبية التى استرشدت بها فى اجتماعاتى وجولاتى بل فى جميع اطوار حياتى ، اتخذتها نبراسا وقد وضعتها انا لنفسى وهى بالطبع لم تحرمنى أبدا من المشاركة والاجتماع . مع الاحتفاظ بما اعتقد ان الله خصنى من كريم الطباع .. وبما نشأت عليها .

كانت المدموازيل سوزان تعطف على رافيك لانها تراه غريبا مثلها ، والغريب للغريب نسيب ـ هو من بلاد الشمال وهى من بلاد الجبال .. وهى ترى فى ميله الى الكتب عن الادب والاجتماع والفن دلالات على أخلاقه الهادئة واتجاهاته الانسانية . وقد استصدرت له اذنا من مدير المكتبة بالاستعارة (وهى مسألة نادرة) وبذلك اذا أعجبه الكتاب اقتناه أو اكتفى بالاطلاع وله حق اعادته . كما جعلت له خصما من ثمن الكتاب الذى يشتريه .

وكثيرا ما كانت تصرح له فى مناسبات كثيرة بأنها جد سعيدة لتوفيقها الى العمل فى هذه المكتبة الكبيرة . اذ أنها تحب الكتب حتى ان منظرها ليسبيها .. فضلا عن أن معاشرة الكتب ، هؤلاء الاصدقاء الاوفياء ، تضفى على المرء الصفات الرفيعة والميول الهادئة والآفاق الواسعة والآمال الكبيرة .

هكذا كانت صلات سوزان ورافيك وأحاديثهما ، تعاطف وصداقة وتقدير . تزداد بينهما مع الايام ، يشعر رافيك بأنها تريحه وترتاح اليه ، فهى توصيه دائما عند ذهابه من عندها أن يعود اليها وألا يطيل الغياب عنها ، وهو من جهته اذا كانت له جولات اخرى بالمدينة فانه يعمل على ان يراها قبل ان يعود الى بيته ..

غير انه لما أراد يوما أن يدعوها الى سهرة فى الأوبرا أو لسماع الموسيقى فى احدى صالاتها الشهيرة وما الى ذلك من أنواع التسلية الراقية ذات الزمالة الرشيقة الفاضلة ، اعتذرت ، فظن رافيك وهو المرهف الحس ، انها لاترضى عن ذلك وان كان غيرها يتسقط عليه فلم يكرر الدعوة محافظة منه على شعورها . وهكذا كانت تمر الأيام دون أن يلتقيا خارج المكتبة أبدا .

وعندما حان وقت السفر الى المشتى ذهب رافيك الى سوزان لتوديعها .

ـ أمسافر اذن أنت حقا ؟

ـ أكنت تشكين فى ذلك ؟ .

ـ لا . ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟!

ثم سكتت وسرحت . وكأنها تريد ان تقول شيئا ولكنها لم تقل ، فقال هو وجعل كأنه لم يلحظ عليها شيئا . قال ـ ان له أصولا فى الجبال فهو يحبها ويحب أهلها ويحب من يسكنها ويحب من يحبها .. وأن له تشوقا قديما الى سويسرا اشهر بلاد الجبال .

قضى رافيك أيامه سهلة هادئة فى رفقة الجبل ذى الجو النقى النظيف مع أسلم وسط للريف · وتلك التيجان البيضاء من الثلج القائم الدائم على رؤوس القمم الشامخات ، وهذه الخضرة فى الحقول والوديان ، والجداول تنحدر من بين الصخور تجرى فى العابات بين الاشجار وفى العراء ، لامعة دافقة ، بتموجاتها الصافيات المتلاحقات ، وكأنها الفتيات الكاعبات الناعمات اللاعبات المتسابقات ··من أين والى أين ؟ سبحان الخلاق ·· وهو علام الغيوب ·

وقد تراسل رافيك مع سوزان عدة رسائل رقيقة ملأى بالمشاعر الطيبة المتبادلة ، وقد لحظ انه لم يكن يسمع منها مثل ما تحمله رسائلها اليه من عذب الاحاديث المتنوعة ·

وقد علل رافيك رسائل سوزان اليه بأن من الناس من يكتب بالحرف مالا يجرأ قوله باللسان ، كما أن منهم من يجهر بالسر مكتوبا دون التلميح عنه أو الهمس به منطوقا ·· ثم اتاح لنفسه الظن الذى يرضيه · ذلك بأنه قد لا يكون لسوزان من تكتب اليه ·· حتى اذا جاءتها فرصة الكتابة الى رافيك جعلت تكتب وتكتب ·· وكأنها تبرر ذلك بأنها تكتب اليه « لانها تريد أن تؤنسه فى غربته لعلمها بأنه وحيد فى عطلته ولا رفيق له فى جولته ·· » كما تقول ·

عاد رافيك الى باريس من مشتاه فأسرع لملاقاة سوزان فاذا بهما يبتهجان ابتهاجا وديا عاطفيا ولكن فى حدود المكتبة ·· غير انه وجدها ضعيفة نحيفة فافهمته انها وعكة بسيطة ستزول قريبا ·

بدأت الحياة والحركة تدب فى كل المجالات ، ونشط رافيك فى دراسته نشاطا كبيرا وخصص اغلب وقته للمذاكرة والدرس ولكن بعد قليل اخذ يستلم من مكتب البريد القريب من الكلية رسالة اسبوعية مكتوبة على الآلة الكاتبة موجهة اليه من « زميلة بالكلية » لا تضع اسمها · وكل رسالة عبارة عن برنامج تفصيلى عما يجب ان يتبعه لكى يستفيد من ايام الاسبوع ثقافيا واجتماعيا ، خارج الكلية ـ مواعيد محاضرات ومسرحيات أوبرات ومعارض فنية ومتاحف وموسيقى وسيناماهات وما الى ذلك من مجالات النشاط الثقافى والاجتماعى فى مدينة النور العظيمة · مع شرح لكل بند من البرنامج الاسبوعى بكل التفصيلات الدقيقة الصحيحة ·· وقد ظن رافيك اول الامر ان هذا البرنامج عام لكل طالب بالكلية من باب الارشاد ·وان عليه ان يدفع عنه اشتراكا ماليا · ولكن تبين ان الامر ليس كذلك وعندئذ لجأ الى سوزان كعادته فأوصته بمتابعة هذه البرامج وألا يهتم لمصدرها ولا يعطى بالا لذلك بل عليه ان يستفيد منها ما استطاع الى الفائدة سبيلا وان ليس المهم معرفة من الذى وضعها بين يديه وانما المهم ان يستفيد منها وهى بين يديه · غير انها كانت تسأله ان يعرض البرنامج عليها فقد يكون لها بعض ملاحظات عليها وفعلا رأت ان ببعضها بنودا ليست ذات أهمية فضلا عما فيها من ضياع وقته كما انه يمكن ارجاؤها الى فرصة اخرى ·

وكان طبيعيا ان المعلومات التى فى تلك البرامج مأخوذة مما ينشر عنها فى الجرائد ومن مختلف دور النشر ووكالات السياحة غير ان الغريب انها موضوعة وضعا خاصا يستفيد منه رافيك بالذات ·· وهذا ما كان موضع حيرته ·· ولذلك فانه رغم نصيحة سوزان ورغم قيامه بالتنفيذ شعر بأن الحيرة اشغلته فاتخذ خطة للبحث عن تلك « الزميلة » فجعل يتقرب الى زميلاته واحدة بعد أخرى بالوسائل اللطيفة المختلفة لعله يهتدى اليها « ويقبض » عليها ·· غير انه لم يصل الى نتيجة · اللهم الا انه تعارف واختلط واختلط وتعارف ·· وكان له من هذه الحركة مكسب عظيم وخطوة اجتماعية طيبة الاثر وهى ماكانت تدعوه اليها سوزان ·· وهنا ادرك حسن توجيهاتها اليه واخلاصها له ·

استمرت شهور الشتاء ثم قرب الصيف وجاء موعد الاجازات · فرجع رافيك الى سوزان يستشيرها · فأشارت عليه هذه المرة بالذهاب الى احد الشواطىء الشهيرة لكى يعلم عنها مايجب ان يعلم وما لم يكن يعلم · وهناك على الساحل الفرنسى الشهير (دوفيل) رأى غير ماكان يرى فى الجبال ولا ماكان يرى فى شواطىء بلاده ··وكما ان للجبال جمالها فان لها جلالها··اما السواحل والبلاجات فلها مايتطلب البحر والعراء من التجرد والعرى ومن التشبه بالاسماك ·

لم تطل اقامته لان الشواطىء لاتلائم صحته ، وعاد مسرعا الى باريس ·· الى المكتبة ·· اين سوزان ؟ · انها مريضة · تمضى اجازتها فى بلدتها عند جدتها ووحيدتها ، وهى بلدة غير التى كانت قد بعثته اليها فى الشتاء ·

اقبل عليها شغوفا مشفقا ، فكانت المفاجأة ·· وكانت الصدمة ·

همت فى لهفة أن تلقاه قائمة فارتدت الى فراشها راقدة ، ولم تستطع الا أن تمد اليه بذراعيها تسليما ، وبالبسمات على شفتيها استبشارا ، وبالدموع تذرفها من مآقيها ترحيبا ··تستحيل بعد قليل لتكون نحيبا ·

على انها هدأت وانتعشت واستراحت أياما ، حاول رافيك لها المستحيل طبا وعلاجا ·· ولكن جاءت الفصل · ساعة الفراق بغير تلاق ··

ذهبت عنه وهى بين يديه كما يذهب النسيم العليل ، وبينما يبلل بدموع الاسى خديها ، يضع القبلة الوحيدة بينهما على شفتيها ·

عاشت بعلتيها تخفيهما بين جنبيها ، تفنى بالأولى وتحيى بالثانية ، وبينما يمتلىء صدرها بالهوى ، يخرج منه مافيه من هواء ·

فيا للقلوب من عجيب حبها ، ويا للحب من اسرار القلوب ·

قضى رافيك ايام بالجبل ، لا نائما ولا صاحيا ، هائما متجولا ، حتى اذا كان يوما حائما حول مرقدها كعادته دائما ، اذا به يشمله شعور غريب ، يغشاه فيعزله عن عالم الحس ، ومضة أو بعض ومضة ، يتلقى فيها نداء سريعا خفيا ، يهتف به أن اخرج من القرية التى كنا فيها الى الدنيا التى نحن فيها ·· اننا نمضى ونفوت ولكننا لانفنى ولا نموت ·

ليس من «فات» فاستراح بميت
انما الميت ميت الأحياء

وهؤلاء أصحاب الرسالات ذهبوا بأجسامهم ولكنهم باقون بأرواحهم ، وها هى ذى تعاليمهم يعمل بها الملايين ، فالحياة مستمرة ولا تنقطع الا هياكلها ·

صحا من غفوته ، وعاد الى يقظته ، واستعد لجديد خطوته ـ أليس هذا الصوت الهامس الخافت الهاتف بين جنبيه هو الايحاء الواعى الداعى الى التفكير والى العمل ؟ · أليس هو الرفيق للطريق ؟·

نعم · مهما أبعدت الايام عن المرء عميده ، فلن يضيع اذا أثبت هو على الايام وجوده ·· ولا خوف على النفس ما دام فيها أمل ولها ارادة ·

تلك كانت تفكيرات رافيك وعزماته يناجى بها نفسه ويأخذ عليها عهدا حتى اذا حان وقت الخروج من القرية ، وجاءت ساعة العودة الى البلدة ، ذهب فى حنان الذكرى يودع الجدة ·

حقيبة ملأى بشتى انواع التذكارات والمذكرات ، أحب ما فيها وأعجب الملف الكبير ـ مسودات أصول البرامج التثقيفية أياها ، التى كان اسبوعيا يتلقاها ·

ممن يتلقاها ؟ لم يكن يدرى ولكنه اليوم يدرى ·· منها ! ··